أرض صحراء الغربة التي استلقت فوق نفاياتها ثلاث جثث فلسطينية في الرواية الاولى، هي غير أرض الصحراء الفلسطينية التي تمد حامد بفعل الانتصاب. فهي ارض فلسطينية، وفوق ذرات ترابها نشهد بذور مواجهة اولى لم تكتمل، فكانت إشارة الارهاص بانعطاف حركة التاريخ الفلسطيني نحو بدايات المواجهة الحقيقية التي شهدت الانسان الفلسطيني ثائراً يرفع سلاحه، والذي نجد صورته الموازية، على المستوى الروائي، في حامد يرفع خنجره في وجه عدوه، في لحظة المواجهة التي لم تشهد انغراس السكين في جسد العدو، لان انغراس السكين كان آنذاك، لو حصل، مجرد كذبة وتضليل رومانسي واستباق لحركة التاريخ. لكنه في النهاية التي انتهى اليها جاء استشرافاً وارهاصاً بتلك الحركة التي شهدها التاريخ الفلسطيني من اجل الارض. فغسان كنفاني لم يستبق حركة التاريخ، بيد انه لم يخنه، إذ استشرف حركة بوصلة مساره.

تطور هذا المسار، هو الذي قفز بحركة التاريخ خطوات تحولية إلى الأعلى، وهو الذي جعل من «ام سعد» كياناً حقيقياً نابضاً يرتقي إلى درجة المواجهة الواقعية بنمطها الشعبي الفعوي. فمن اين تجيء ام سعد؟ انها «تصعد من قلب الارض وكأنها تصعد سلماً لانهاية له» (ص ٤٥)، مدركة تلك العلاقة بين النبتة وأرضها، ومجسدة علاقة الانسان الفلسطيني بأرضه.

هكذا تنتصب أم سعد أمامنا، نبتة فلسطينية تضرب جذورها في عمق الارض، كما الدالية التي تزرعها «تأخذ ماءها من رطوبة التراب ورطوبة الهواء، ثم تعطي دون حساب» (ص ٢٤٩).

وإن احتلت الارض المساحة الاوسع في ذاكرة الانسان الفلسطيني الذي عرفها، فإنها للجيل الذي ولد ونما بعيداً عنها تبقى شيئاً آخر أكثر من مجرد ذاكرة. فإذا كانت الارض بالنسبة لسعيد س. في رواية «عائد إلى حيفا»، مكاناً يعشش في خلايا الذاكرة بكل أشيائه الصغيرة وتفاصيله ويتنكر لصاحبه إذ يطل عليه بعد هزيمة، فانها لجيل ابنه خالد، الجيل الذي لم ير الارض من قبل لكنه حمل السلاح ليقاتل من أجلها، تعني شيئاً أكثر من مجرد ذاكرة. «كنت اتساءل فقط. افتش عن فلسطين الحقيقية. فلسطين التي هي أكثر من ذاكرة، أكثر من ريشة طاووس، أكثر من ولد، أكثر من خرابيش قلم رصاص على جدار السلم. وكنت أقول لنفسي: ما هي فلسطين بالنسبة لخالد؟ انه لا يعرف المزهرية، ولا الصورة، ولا السلم ولا الحليصة ولا خلدون، ومع ذلك فهي بالنسبة له جديرة بأن يحمل المرء السلاح ويموت في سبيلها» (٤١١ ـ ٤١٢).

وتصل العلاقة بين الانسان والارض في «العاشق» إلى حد الاندماج والتوحد. ينتفي عبد الكريم، العاشق، عن اسمه، ينكر ذاته القديمة ليتقمص اسماً وشخصاً آخر في كل مرة، لكن هذا الانكار يظل في سبيل الارض التي لا ينكرها. يهرب من رقعة إلى رقعة، لكنه يظل فوق الأرض التي يعشق، والمتوحد فيها حتى العظم والنخاع، متنقلاً فيها، منها،واليها، تحتويه بتواطئها الحنون معه وتحدب عليه. كل الاشياء لديه تبدو قابلة